سلسلة أمراء النصر والتحرير

دبكة تحت الزيتونة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

أروع قصص الصامدين

سلسلة أمراء النصر والتحرير

دبكة تحت الزيتونة

دبكة تحت الزيتونة

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
CULTURAL ISLAMIC AL-MAAREF ASSOCIATION
بيروت، لبنان، حارة حريك، شارع دكاش
تلفاكس: ٠١/٢٧٣٧٦٦
ص.ب: ٢٤/٥٣ - ٢٥/٣٢٧
www.maaref.org Email: info@maaref.org

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

• عنوان المسابقة: أروع قصص الصامدين

• عنوان القصة: دبكة تحت الزيتونة

• الكاتب: د. عايدة الصعيدي

• الرعاية: بلدية بعلبك

• المنظم والناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة الأولى - تموز - ٢٠٠٨م

دبكة تحت الزيتونة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلـى ثُلّـة الفـوارس التـي أبـت إلا وأن تنهي عرس نصر حرب تموز وآب بسهولٍ من شقائق النعمان، سهول أصبحت على صيفٍ وشَبَّت ربيعاً في أيلول.

إلـى الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه في محاريب الثغور، إلـى الذين ثبتوا وصمدوا في زمـن الاستسلام، إلـى المجاهدين والجرحى والشهداء..

أهدي عملي هذا..

دبكة تحت الزيتونة

دبكة تحت الزيتونة

يـد قرعت باب دارٍ شُيِّد من الصَّخر، دار يبدأ من الأرض ولا يبدو أنَّــه متطفلٌ عليهــا؛ يشبه أشجار الكينا والسنديـان والزيتون، ويلبس ثوبـاً من الأحمـر والأبيض كألـوان الأقحوان والياسميـن. هي دقات أرسلها القلب منتظمة الإيقاع مع صوت الطبيعة.

سيـدة فـي عقدها الرابع فتحـت الباب. ليست سيـدةً للعين بقدر ما هـي سيدة للقلب والعقـل... زينتها عينان مشعتـان ووجنتان بلون الورد.... الحب ولادته في وجهها ونهايته في صوتها:

- «أهـلاً.... أهلاً حسين ... تعال تفضـل» سبقت السيدة الشاب القادم ترحيباً، يعرف حسين السيدة أم بلال منذ أن كان في سنواته الأولـى وكانت تقدم له كوب الحليب مع ولدها بلال، كانا أكثر إقترابـاً مـن الشقيقيـن، فبات الناظـر إليهما يحسبهما توأمـاً رغم اختلاف ملامحهما.

- «صبـاح الخير خالتـي ... هل بلال فـي الدار؟» سألهـا دون أن يحاول دخول الدار.

دبكة تحت الزيتونة

– «تجده هناك ..» إجتازت بوابة الدار وأشارت إلى منطقة جغرافية لم تفسدها المدنية ... فقط أشجار ترتفع عن سجاد أحمر حاكته أميرة الأقحوان.

– «شكراً خالتي ...» ..... خطوات خارج مدار الأقدام والحذاء أوصلته حيث الوجوه الفتية نجوماً وضاءة بجهة واحدة هي الجنوب...

–«أنظروا من جاء ...» صاح قاسم. هذا إسمه في الهوية...

– «أهلا حسين» صاح الرفاق مرحبين بالآتي إليهم.

– «أنهيتُ إمتحانات الثانوية العامة وأتيت لقضاء العطلة في العديسة معكم... كيف حالك يا قاسم؟ كنت تنوي السفر للدراسة الجامعية.... هل غيرت رأيك ؟» لم يجب قاسم. بلال قام بالمهمة:

– «لن يجيبك... شيفرة الكلام معه هي أن تناديه « هادي» ... لا يعتبر الكلام موجهاً إليه إن لم تناده بهذا الإسم ... أود أن أفعل الأمر نفسه ... لكن حين ينادي أحدهم على « هادي» كيف أعرف من المقصود؟!»

– «أدرس الآن في كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية» أجاب «هادي».

– «هو مصدر كل الإزعاج في العديسة ...يأتينا بالأخبار التي تسبب لنا الصداع عن أحوال البلد... كم يبدو عديم المعرفة سعيداً ... لا يتركني أهنأ يوما دون أن ينقل إلي خبرا مؤذيا!» علق بلال.

– «لكنك تبدو في أحسن أحوالك يا صاحبي!» أجابه حسين.

– «لأنني اعتدت عليه» رد بلال. السنديانة أيضا ضحكت كثيراً

– «إذن أنت باق معنا طيلة شهر تموز هذا؟» تكلم « هادي».

– «أجـل...لا أعرف لم أشعر بهذا الدافع للمجيء إلى العديسة..» أجاب حسين وعيناه فراشتان ملونتـان إنطلقتا من حضن السنديانة حيث اللقاء إلى كل زهرة استندت إلى حجر.

– « هنـا أنتمي إلى الحلـم... أستطيع أن أبني بيتي كما أريد وعلى أرض تعطي لتعيش ... هنا أولادي سيعرفون أن الحياة لها معنى الزرع والحصاد» أكمل كلامه.

– «ما رأيك لو تبقى هنا وترسلني بدلاً عنك إلى بيروت ... !!! هذه الحياة غير عادلة» دائماً هو بلال من يعبث بجدية الرفاق..

– «المدينـة... نعـم هي مكان للحياة ... ولكـن عطر الطبيعة هنا يمنح الإحساس بالسكينة..» كان حسين يتحدث بينما راحت أصابعه تلامس زهرة الأقحوان في لغة خاصة.

– «وهناك !.. (ملتفتاً إلى الخلف حيث الحدود مع جليل فلسطين) ... هل تركوا لنا هذا الإحساس؟» رد بلال.

جواد بدا مصغياً ... لكن للعقل رحلاته الخاصة.

– «أنظروا إلى جواد مثلاً ... سيتخرج هذه السنة ... مهندساً في علم الكومبيوتر ... مع إنه يزيدني عمراً بعام واحد ... وأنا لا أزال في السنة الأولى...» أشار بلال إلى شاب لم يتجاوز عقده الثاني.

– «عرضت عليك مساعدتي أكثر من مرة ... ولكنك كنت تتلهى بأمور أجهلها...» أجاب جواد بصوت خجول... بصوت الأخوة والصدق.

دبكة تحت الزيتونة

– «لست لاهياً... بل معاوناً لأبي في كروم الزيتون ... أبي يجهد كثيراً في الإعتناء بالأرض ... يعطيها معظم وقته ... وهو يتوقع الخير الكثير لهذا الموسم... » أجاب بلال بلهجة جدية ثم إلتفت إلى مازن قائلا:

– «كذلك يفعل والد مازن ... حقول التبغ ويديه رواية حب تاريخية» ... وكأن الأرض لها هذه الهوية على راحتي اليدين ، هكذا اختلست العيون نظراتها إلى راحات أيدي أصحابها، فاستكانت... الأرض بخير... إذن العائلة بخير.

بلال وهادي ومازن وجواد .. أربعة وجوه من الذهب كانوا... فباتوا خمسة شلالات ... للحاقد خمسة براكين .. وللمناصر خمس بنادق ... تلك السنديانة أتقنت حفظ الأسرار ... لو قطعت لا تبوح بما سمعت. أغصانها أحضان من الأمان.

كروم الزيتون في العديسة تعرف عائلاتها... ولها معهم مواعيد أشد دقة من عقربي الساعة. في بداية تموز كانت الكروم توزع دعوات القطاف ... سخية أكثر من قدرة أغصانها... وها هي قبل أن ينتصف تموز بثلاثة أيام تغدق خيرها؛ سمعتْ والد بلال يقول لأم بلال:

– «هذه السنة الرزق وفيرٌ... إنشاء الله سنبني بيتاً لبلال قرب منزل شقيقه... سيجد كل شيء جاهزاً حين يجد العروس التي يريدها».

أرادت كروم الزيتون أن تقول «إنشاء الله أكثر من بيت» ، لكن أم بلال سبقتها قائلة بفخر وعيناها هناك ... هناك في خط مصافحة الأرض للسماء:

- «رب العالميـن كريـم ... يعطينـا الكثيـر والحمـدلله». هـذه «الحمـدلله» تسمعها كروم الزيتـون ريّاً وشمساً وترابـاً.. هي لا تريد أكثر من هذا... أن تعطي.

فـي الجنوب ... الحـوار بين كروم الزيتـون وعائلاتها مستمرٌّ... لكنـه فـي العديسة حوار أكثـر إقتراباً مـن التراب، إستغـل الأطفال هـذه العلاقة أفضل استغلال؛ هناك طفل ينقـل السلة لتُملأ ما جُمع حصاداً، وبالقرب منه باقة أطفال باتوا وألوان المكان على فسيفساء صاخبة. وعلى الرغم من كل ذاك الصخب الملون ، العين ترى اللون الطارىء كما الأذن تسمع الصوت الخارج عن السرب.

- « سماحة السيد حسن على التلفزيون... يقول إننا أسرنا جنديين إسرائيليين ...» صوت مراهق لاهثٍ أتى بالنبأ.

طار الكلام من عين براقة إلى عين أكثر بريقاً...

- «الكل هناك في الساحة يحتفلون ..» تابع المراهق كلامه.

تسارعـت الأيدي إلى أغصـان الزيتون بوتيرة أكثـر حيوية ، أكثر ارتباطاً بالأرض.

- «كيـف تتوقـع رد فعـل إسرائيل؟» سألتْ أمُّ أحمـد ... أمُّ نزار ... أمُّ محمـد ... لا تعنـي الألقاب هنا شيئاً... كلهـن السؤال نفسه قضيتهـن .

- «... وكمـا هو الحدث دائماً... رضوخ إسرائيل للتفاوض مقابل تبـادل الأسيريـن الإسرائيلين بالأسرى اللبنانييـن المعتقلين لديها» أجابت إحداهن.

دبكة تحت الزيتونة

– «أيـن أسـر ت المقاومة الجنديين؟» سألـت إحداهن وهي تتابع قطاف الزيتون.

– «على حدود عيتا الشعب» أجاب المراهق بحماسة بالغة ثم أردف قائلا :

– «لقدُ قتل أيضا عدد من الجنود الإسرائيليين».

في منزل بلال إجتمع الرفاق.

– «علينا التأهب للمواجهة حين تطلب القيادة» قال مازن بحماس .

– «ونحن مستعدون» أجاب «هادي».

– «وأنا؟!... أريد أن أكون معكم» قال حسين برجاء.

– «لا ... لا لستَ مؤهلاً كما يتوجب ... لم تتلق التدريبات الكافية» رد «هادي» بلطف.

– «بل أنا مؤهل أكثر مما تنتظرون....» رد حسين بتحدٍّ ظاهر.

– «لـم تتلق التدريبـات اللازمة لهكذا مواجهـة» قاطعه أحدهم و الباقون أيضاً رفضوا.

فـي اليـوم الثالث من بداية العدوان الإسرائيلي على لبنان، وفي أمسيـة عاصفة بالقصف البري والبحـري والجوي الإسرائيلي طالت معظـم البلـدات الجنوبية، رأى العالـم كله، قبـل الجنوبيين، تدمير البارجـة الإسرائيليـة «حانيت» أمام شواطىء بيـروت، و كانت عائلة حسين لا تزال في العديسة.

– «أبـي ... أريـد المشاركـة مع شبـاب المقاومـة ... وأريدك أن تساعدنـي ... لا أريد أن أقـف متفرجاً أمام ما ترتكبـه إسرائيل من

مجازر ... أنظر ما فعلوا في الدوير والبازورية وطير دبا وغيرها» قال حسين لوالده بالرجاء الفائض نفسه.

- «سأتحدث مع «أبو حيدر» في هذا الشأن» رد الأب كمن يجيب على سؤال عادي كطلب الخبز أو الماء.

- «أرجوك أبي أن تفعل هذا الآن» الإلحاح لم يكن هجيناً، فقد كان له جذورٌ في الجسد والروح.

في الليلة نفسها، اتصل والد حسين بأبي حيدر.

- «إبني حسين شاب قوي ومتدرب وممتاز ...أبقوه معكم ليساعدكم وما يقع عليكم يقع عليه».

- «كم يبلغ عمر حسين؟» سأل أبو حيدر.

- «تسعة عشر عاماً» أجاب الأب.

- «حسنا... أرسله إلي» ختم أبو حيدر الحوار.

عانق حسين والده مودعاً، إنحنى محاولاً تقبيل يده لكن الأب سحب يده بسرعه. الأم بارعة في إخفاء الدمع.

- «أنت وديعة الله - سبحانه وتعالى- لدينا يستردّك متى يشاء» هذا ما زودت به الأم إبنها حسيناً.

- «نحن باقون هنا، في العديسة، من يدري ... قد تجدني بينكم» إلتحمت العيون في أبجدية أسمى بكثير من الكلام. هكذا سمع حسين ما قالته عينا والده.

بقي حسين مع مجموعة من شباب المقاومة في العديسة إنتظاراً للدور.

دبكة تحت الزيتونة

مـرت عدة أيام قبـل أن تتحرك مجموعة المقاومـة في العديسة. كان الجيشـ الإسرائيلي لا يـزال عاجزاً عن التقدم فـي محاور بنت جبيل ومارون الراس وعيتا الشعب.

إتصل والد حسين بأبي حيدر سائلاً إياه عن حسين:

– «هل حسين خائف؟ لا تدعه يخاف ...إنتبه له...»

– «خائـف!!! بـل إنـه غاضـب لأنه لم يدخـل بعد فـي مواجهة مع الإسرائيلـي... إنـه شاب مطـواع .... ينام حيثما يطلـب منه ... ولا يتذمـر من أي طعام يقدم له ... يبدو لي حريصاً على أداء الواجبات المطلوبة منه».

تناقل المقاومون عبر أجهزة الإتصال الخبر:

– «عشـر دبابـات «ميركافـا» أصيبـت بنيـران المقاومـة في تلة العنيسة».

أبو حيـدر ومجموعته فـي العديسة إحتفلوا بالخبـر الجديد على طريقتهم الخاصة؛

– «تعالـوا للدبكـة تحـت شجرة الزيتـون هذه» نادى بـلال رفاقه المتربصين خلف أشجار الزيتون.

لم ينتظر طويلاً حتـى وجدهم متشابكي الأيدي و«الكلاشينكوف» على أكتافهم تحت شجـرة الزيتون بينما سبقتهم أقدامهم إلى إيقاع الدبكـة، وأشجار الزيتون المتشابكة بدت متمايلـة رقصاً على إيقاع دبكتهم الفرحة.

حين سقط بالقرب منهم صاروخ «الميركافا» ولم يصبهم، قال بـلال بعد أن تفقد الرفاق بعينيه مـن خلال ستار من الغبار وعاصفة

من الحصى:

- «يا عين... الحمد لله على السلامة: لكن لا بأس إنها على بعد عشرة أمتار منا... هي بعيدة... لم يصب أحد منا». وعادت لهم جديتهم.

عبر المذياع سمعت مجموعة أبي حيدر عن المجازر الإسرائيلية التي نتجت عن القصف العنيف الذي استهدف مجدداً بلدات عيترون وصور وجبشيت والبازورية. وبدأ قصف المقاومة لمدينة حيفا بالصواريخ بعيدة المدى.

جاء بلال بأحد المناشير التي أسقطتها الطائرات الحربية الإسرائيلية في مدينة صور والقرى المجاورة وقرأها أمام رفاقه ثم علّق قائلا:

- «إنهم يطلبون من أهلنا أن يتخلوا عنا... يخيفونهم بالقصف المتواصل... ويطلبون منهم إخلاء المنطقة إلى شمالي الليطاني... كتبوا المناشير بلغة عربية ركيكة و مضحكة». ثم تابع: «دفع الهواء معظم هذه المناشير إلى البحر... حتى الهواء يقاومهم». ضحك الجميع أكثر مما توقعوا.

نظر جواد إلى ساعة يده قائلا:

- «إنه اليوم الثاني والعشرون من تموز، أي اليوم العاشر من بدء العدوان والحمدلله لم يتحقق أي تقدم إسرائيلي على الأرض».

- «لن نستعمل الهامش المعطى لنا من قبل «سماحة السيد» بالسماح ببعض التوغل الإسرائيلي ما دام يفي بالغرض... ما زلنا قادرين على منع تقدمهم». أجاب أبو حيدر.

دبكة تحت الزيتونة

إنها الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة ليلاً حين رصدت مجموعة من المقاومين عدداً كبيراً من مشاة الجيش الإسرائيلي الذين أتوا مشياً من مستوطنة «مسكاف عام» إلى ساحة العديسة. مجموعات من المقاومة كمنت لهم في الأمكنة التي لا يتوقعونها وغير الظاهرة.

بدت فرقة المشاة الإسرائيلية، المنقسمة أيضاً إلى مجموعات، مطمئنة إلى الهدوء الذي ساد المكان آنذاك. صاروخ بمعدل كل ثانية سبق قدومهم قصفاً على مدى ثلاثة أيام متتالية حتى أمسى صوت الغارات متصلاً كدوي واحد هائل، بهدف إفراغ البلدة من المقاومين ومن أي كائن حي.

– «إفتح جيش دفاع» سمعت مجموعة مقاومين صراخ أحد الجنود الإسرائيليين وهو يقرع باب أحد البيوت.

لم يسمع الجنود الإسرائيليون رداً. أحدهم علق على الهدوء الظاهر قائلاً بلغته العبرية:

– «حتى الطيور لم تعد موجودة في المنطقة.»

على مسافة من هؤلاء الجنود كانت مجموعة أبي حيدر تنتظر.

– «إنهم على بعد خمسين مترًا منا » خاطب أبو حيدر لا سلكياً مسؤول المقاومة في العديسة.

– «إفتح النار» جاءه الجواب.

إثنا عشر جندياً إسرائيلياً وجدوا أنفسهم في مصيدة من القذائف والقنابل والرصاص من مختلف العيارات. لم تقع مواجهة بين الطرفين. ثمانية جنود إسرائيليين إنهاروا نفسياً أمام عويل

وصــراخ جريح لهم، فــرَّ أحدهم بدون حذائه بينمــا انهمك الأربعة الباقون في إخراج جريحهم من المعركة.

تقدمت مجموعة أخرى مؤلفة من خمسين جندياً إسرائيلياً باتجاه مصــدر النيران. كان بانتظارهم فقــط خمسة مقاومين. رمى مقاوم قنبلة يدوية. أطلق مقاوم ثان قذيفة آر بي جي. فتح مقاوم ثالث النار بشــكل كثيف. أصيب قائــد المجموعة الإسرائيليــة في عينه ففقدت المجموعة الإسرائيلية قدرتها علــى المبادرة وبدأ عناصرها بالفرار من المعركة.

– «آه... العــدو خيــب ظننــا!... ليــس هذا هــو المقاتــل الذي نود مواجهتــه ... إننــا لا نقاتل .. إنهــا حالة حرب مع نيــران أطلقت من بعيد» صاح أحد المقاومين.

لاحــظ جــواد أن أحد البيوت القريبة منهم قد طــرأ عليه تغييرٌ ما فــأدرك أن بعض الجنــود الإسرائيليين قد دخلوه؛ تقــدم نحو البيت بحــذر شديد... كان يعــرف أنهم دخلوا المصيــدة بأرجلهم... أطلق عليهــم قنبلة يدوية وفتــح عليهم نيران سلاح تــدرب عليه في ميدان المعركــة، وجد جنديين إسرائيليين مقتولين. وضع جثة على الأخرى جهزهما ثم اتصل لاسلكياً بأبي حيدر قائلاً:

– «معي جثتان لجنديين إسرائيليين ... ماذا أفعل بهما؟»

– «خبئهما» أجاب أبو حيدر بإيجاز شديد ... كبسة «بيدال» واحدة علــى الجهاز اللاسلكــي، إذا التقطتها طائــرة « .M.K » كانت كفيلة بتغيير معالم حــارة بكاملها بعد دقائق. التقط جواد الهاتف الخليوي

دبكة تحت الزيتونة

الملقى أمام الجثتين و أحب أن يتسلى. استعاد الرقم الأخير المدون على شاشة الهاتف فجاء على الجانب الآخر صوت إمرأة تكلمت بلغة عبرية:

– «آه زوجي ... أأنت بخير؟» جاء صوت خائف وقلق.

– «شالوم ... معك «حزب الله» .. أصبحنا في نهاريا..» كان الصوت غير المتوقع وباللغة العبرية.

صراخ أو هستيريا أو ما يقال عنه إستغاثة المطارد من قبل الأشباح، هذا ما سمعه جواد، وبعدها غاب الصوت. ربما تسلى جواد أكثر من مرة ... أراد أن ينسى مشهد تدنيس الأرض بجثتي الجنديين الإسرائيليين.

خرج جواد من البيت لمتابعة المهمة، أحس كأنه جيش من المقاومين في جسد واحد. لم يبتعد كثيرا حتى سقط بثلاث رصاصات أطلقها قناص.

غرقت العديسة في ضباب كثيف من جراء القصف الدخاني، كان صوت المروحيات الإسرائيلية يدل على عمليات لنجدة المصابين ونقل القتلى. كانت مجموعة أبي حيدر قريبة جداً من المكان. أراد حسين إحصاء عدد الحمّالات التي نقلت المصابين إلى إحدى المروحيات لكنه انتبه إلى حركة خلف المكان حيث يتربص أبو حيدر ومجموعته، فرأى عدداً من الجنود الإسرائيليين المدججين بالأسلحة وهم يحاولون محاصرة الأخوة. فباغتهم بقصد إشغالهم ومنعهم من التقدم باتجاه المقاومين. نصف ساعة في معركة سمع فيها صراخ

وعويل الجنود الإسرائيليين الجرحى أكثر من أزيز الرصاص، ثم توقف الإشتباك. أدرك الرفاق ماذا فعل حسين لإنقاذهم. تذكر أبو حيدر ما قاله أبو حسين عن ابنه وتمنى في تلك اللحظة لو يخبر الأبَ حدود البطولة التي تجاوزها حسين.

تدافع رفاق حسين لحمل جثته لكن الأسرع كان أبو حيدر، ما أراد البكاء لكن الدمع حاور الدم أنيساً. إنسحبوا إلى مواقع حيث نصبوا الكمائن للجنود الإسرائيليين.

إلتقى أبو حيدر ومازن وبلال وهادي في منزل أم ناصر في العديسة . سألها أبو حيدر:

- «هل لديك بعض الخبز لنا؟»
- «لقد أخذت ما صنعته إلى الشباب هناك... حالا أصنع لكم خبزاً طازجاً». أجابت أم ناصر.
- «نساعدك في إعداده». رد أبو حيدر
- «أريد أن أغسل يدي... منذ أيام ونحن نصلي تيمماً» قال هادي.
- «ترابنا طاهر ونقي لا تقلق» علق بلال.

أعد أبو حيدر العجين وقطعه هادي ومازن ورققه بلال بينما قامت أم ناصر بخبزه في الفرن الحجري.

- «كيف هي أخبار عائلتك يا أم ناصر؟» سأل أبو حيدر.
- «أرسلنا الأولاد إلى بيروت في ضيافة عائلة زوجي وبقينا أنا وأبو ناصر هنا... أبو ناصر ينقل الأغراض إلى الشباب» أجابت أم ناصر وهي تضع الخبز الساخن في مجموعات من الأكياس الصغيرة.

دبكة تحت الزيتونة

« هكذا أستطيع أن أخبىء ربطة الخبز داخل عباءتي حين أنقلها» حين أكملت أم ناصر كلامها كانت أكياس الخبز جاهزة للتوزيع.

أخـذ المقاومـون حاجتهم من الخبـز واحتفظوا ببعض منه في جعبهم وفيها ما وفروه للأيام القادمة.

قبـل أن يغادروا المنزل سقطت عشرات القذائف الصاروخية في المنطقة نفسها حيث تواجدوا.

– «إحترسي يا أم ناصر ... لا تخرجي الآن ... سنؤمن لك الطريق». قال أبو حيدر .

– «لا تقلق بشأني ... لا أخاف قذائفهم ... ليست تجربتي الأولى مع العدوان الإسرائيلي ... تعلمت الكثير من حروب إسرائيل علينا... معي إيماني بالله ... أنا هنا لأساعدكم» ردت أم ناصر بصوت إمرأة تصلي.

– «إذن نراك قريباً إنشاءالله» قال أبو حيدر.

– «علـي أن آخذ الخبز إلى الحاج أبـو يوسف الذي بقي وحيداً في بيتـه هناك» وأشـارت إلى حيـث تساقطت مئات القنابـل والقذائف الصاروخية.

نظـر أبـو حيـدر ومجموعته إلـى حيث أشـارت أم ناصـر فسألها أحدهم بدهشة:

– «أتقصدين تلك الحارة المدمرة تماماً؟!»

– «نعم ... هناك بقي الحاج أبو يوسف ... قال لي إنكم قد تحتاجون إليـه ... وتسألني لماذا لا أخاف!». ردت أم ناصر وهي تخفي ربطتين من الخبز تحت عباءتها السوداء الفضفاضة.

إفترقـت مجموعة أبي حيدر عـن أم ناصر في اتجاهين مختلفين وصدورهم ممتلئة فخراً.

كمنـت مجموعـة أبي حيـدر خلف أشجـار الزيتون فـي العديسة إنتظاراً للمواجهات التالية.

أراد مازن أن يتحدث عبر هاتفه الخليوي مع إبنه أحمد. أحس كأنه سيسمع صوته للمرة الأخيرة. سمع صوت زوجته كما رأى وجهها:

- «أحمدك يا الله ... أأنت بخير أبو أحمد؟».

- «نعـم نحن بخير ... أين أحمد؟ دعيني أسمـع صوته..» أراد أن ينقل المشاعر التي إنتابته في تلك اللحظة إلى عائلته..

- «حالاً .... ها هو ... تعال يا أحمد ...تكلَّم مع بيّك»

- «هذا أنا حبيبي أحمد ... ماذا تفعل الآن؟» سأل مازن إبنه.

- «أنا ألبس مثلك ثياب العسكر ... أنا وأمي ندعو الله ليحفظك» أجابت السنوات السبع.

مسح مازن دموعه الغزيرة وجاهد ليبقي صوته خارج الدموع.

- «أمـي تريـد أن تحكي معـك ... أنا سعيد لأنك أبـي ... أريد أن أكـون معـك» كان أحمد لا يريـد التوقف عن محادثة أبيـه، لكن الأم أخذت الهاتف قائلة للأب:

- «أحمـد لا ينام قبل أن يدعـو لينصركم الله... نحن واثقون من النصر بعون الله» قالت أم أحمد.

- «سننتصر ... نعرف هذا... الآن وداعاً، نلتقي قريباً إنشاءالله» أنهى مازن المخابرة الهاتفية وقد إزداد عزيمة وصلابة.

دبكة تحت الزيتونة

كان هدير طائرات التجسس الأربع فوق بلدة العديسة مواكباً للقصف الجوي الإسرائيلي المتواصل. رصدت مجموعة أبي حيدر توغل رتل من الدبابات الإسرائيلية تقدمتها جرافة داخل كروم الزيتون. تبادل المقاومون الثلاثة إشارة البدء. زرعوا الطريق بشبكة من العبوات الناسفة وانتظروهم. كانت مجموعة أبي حيدر مزودة بالمضاد للدروع وصواريخ الكورنيت. أعطى أبو حيدر الإشارة إلى هادي لنصب كمين داخل أحد البيوت.

على بعد عدة أمتار فقط بدأ الهجوم على الدبابات المتوغلة؛ تم تفجير العبوات فتعطلت الجرافة وتعرضت دبابات «الميركافا» لوابل من الصواريخ. سبع دبابات أصابتها صواريخ أطلقها مازن الذي وجد في كل دبابة مصابة حافزاً قوياً للمضي في المواجهة وإطلاق النيران. قبل أن تصيبه رشقات رشاش في عدة أماكن من جسده، أطلق آخر صاروخ معه.

رأى أبو حيدر، من خلف شجرة زيتون حيث كان متربصاً، جندياً إسرائيلياً متوجهاً إليه، تلاقت العيون ... برقت... رعدت ... أمطرت... سؤال احتل الرأس وما احتمل انتظار الإجابة:

« ما به لا يطلق النار؟!» قبل أن يأخذه السؤال استرخاءً ضغط على الزناد، لم تطلق البندقية فالمخزن فرغ من الرصاص.بدله،صوب نحو الجندي الإسرائيلي وهو يهرول بعيداً عنه في أقصى سرعة إستطاعتها ساقاه فأطلق عليه النار...

هدأ المكان من الإشتباكات بين من بقي من مجموعة أبي حيدر

و الجنـود الإسرائيليين الذيـن توغلوا إلى داخـل العديسة. تراجعت مجموعة أبي حيدر إلى مكان أتاح لهم رؤية تواجد الجنود الإسرائيليين وتحركاتهم وانتظروا فرصة للإنقضاض عليهم.

رأى أبو حيدر ومجموعته بضعـة جنود إسرائيليين يدخلون منزلاً قريباً منهـم. تركهم مطمئنين إلى خلو المكان من المقاومين ، فقط نصـف ساعة من الطمأنينة التي إحتاجها الجندي الإسرائيلي آنذاك أكثر من الطعام. أبو حيدر أعطى التعليمات:

- «بـلال ... إبـق مكانك .. راقب محيط المنـزل ... » ثم خاطب هادي لاسلكياً: «هادي ... إستعد إنهم في البيت المجاور».

من تحـت الأرض حيث كان الجنـود الإسرائيليون يتناولون طعاماً وجـدوه في البيت، أو يقضـون حاجاتهم وسط الـدار، تفجرت نيران مـن عبوات ناسفة ومن رشقات رشاشـ مشحون... تحول المكان إلى مساحة جغرافية لأجساد مبتورة سترتها بذلات كرهت الإلتصاق بها؛ كل شـيء غـادر الأجساد المبتورة ما عدا الحقـد المشظّى الذي عاد إليهـا. لم يحص أبو حيدر عدد المصابيـن والقتلى، إذ غادر المكان بسرعة بعدما نبهه بلال إلى تقدم عدد كبير من الجنود الإسرائيليين لإنقـاذ الجنود المصابين ، آزرتهـم المروحيات الحربية في عمليات الإنقاذ والإسعاف. رأى بلال أربع حمالات إسعاف وأراد أن يضحك ، لكنه لم يشأ أن يفعل هذا وحيداً. تذكر هادي وأبا حيدر.

- «لا شك أنهما ينتظرانني» عرف أين يمكن أن يجدهما.

كان الرصاصـ الإسرائيلـي في كل إتجاه، فـوق رأس بلال وأمامه

دبكة تحت الزيتونة

وخلفـه ، ومـع ذلك وصل المـكان المقصود. لكنه وصلـه مصاباً في إحدى ساقيه.

– «إنهـم قريبون منا جداً... هنـاك ..» بادرهما بلال مشيراً إلى مكان لا يبعد أكثر من عدة أمتار حيث تواجدوا.

– «لا بأس ... نحـن بانتظارهـم ... لنعالج إصابتـك أولا» رد أبو حيدر.

– «لا ..لا.. دعانـي هنا... سأجد مكاناً لأداوي جراحي بنفسي ... معي ما يلزم لذلك» قال بلال بثقة شديدة.

– «لن ندعك بمفردك هنا ... أستطيع حملك ... أنت نحيل جداً .. أقل وزناً مما أحمله الآن» رد هادي.

حمـل هـادي رفيقـه المصـاب بيـد بينمـا كان يطلق النـار بيده الأخـرى... وصلوا مكاناً آمنـاً... تلقى أبو حيدر إتصـالاً من القيادة ... بالقـرب منهـم من منصة متحركة أطلـق المجاهدون صلية من الصواريـخ وصـل مداها إلى العفولـة داخل إسرائيـل، وكانت لديهم ثـلاث دقائق لمغادرة المكان قبل أن يرصدهم الإسرائيليون. أراد أبو حيدر مساعدتهم على العودة بتجهيزات قاعدة الصواريخ ضمن تلك الدقائـق الثلاث، على الرغم من عدم وجود طلب من القيادة بالعودة بهـا، لكن الـرد الإسرائيلي جـاء بعد دقيقة ونصـف الدقيقة مخالفاً توقعات المقاومين.

إستشهـد هادي نتيجة إصابته بشظايا حارقة في عدة أماكن من جسـده، بينما إنفلت جسد بلال متدحرجاً على تراب إحتضنه بحنان قبيل الوصول إليه.

ساعات مرت قبل أن يوقظ الألم بلالاً ... كان عاجزاً عن القيام بأي حركة ... لم يستطع الإلتفاف بحثاً عن الرفاق... كأنه بات جزءاً متآلفاً مـع التراب... إقتربـت منه قطة برية وأخذت تلعـق من جراحه، حاول جاهداً طردها... لكن لا جزء من جسده إستجاب للنداء. هو الألم الذي صار له صوت أفزع القطة. تركته مطارَدة بوجع لم يعرفه بشر.

للأنين معنى حين يسمعه جريح حرب؛ إذن هناك من كان حياً... ربمـا بقـدرة غير عادية إلتفت بـلال حيث مصدر الأنيـن فشاهد أبا حيـدر مصاباً إصابات بالغة في معظم أنحـاء جسده ... يده اليمنى لم تلب حاجته إليها... هي موجودة لكنها كانت في بحيرتها الحمراء ... لجأ إلى اليد اليسرى ... كيف استطاع إستعمال اللاسلكي الخاص به ! هي وحدها يسراه تعرف السر.

وتوقف الزمن هناك... ساعات... دقائق ... ثوان... لا فرق.

بين اليقظة والغيبوبة، أحس بلال بيدين تزيلان عن وجهه ما التصـق به من التراب ثم راحـت اليدان تقومان بربط الساق والذراع المصابيـن بالنـزف الحاد. شـرب دواءه بين الحيـاة والموت. فقط وجـه... تأرجح بين الظهور والغيـاب ... وجه أمـره بالحياة والتغلب على الإستسلام... لا يمكن حساب الألم بميزان الواقع... لكن الوجه إستدرج بلال إلى التمسك بالواقع رغم الألم.

- «كيـف تشعـر الآن؟» صـوت غيـر مألـوف يشـده إلـى المكان والزمـان. «هيا ... يا بطل ... ساعدنـي لنرحل من هذا المكان...» تابـع الصـوت نفسـه.

دبكة تحت الزيتونة

– «مـن أنـت؟ وأين نحن ...» سأل بلال بصـوت واهن وعيناه في المكان كالطواف في مكة.

– «أنـا من هنا من العديسـة... وأنا أقوم بمعالجتك منذ أن أبلغت عنك... سيأتون لنقلك أنت و ورفيقك... إنه أسوأ حالاً منك... لكنني عالجته كما يجب» أجاب الرجل القروي .

– «كيف وصلت إلى هنا؟ القصف لا يزال عنيفاً!» سأل بلال الرجل الجاثي قربه.

– «لـم أصـل ... أنـا أسكن هنـا ... أنظـر هنـاك... أترى ذلك البيـت؟... (وأشـار الرجل القروي إلى بيت شبـه مدمر وسط دمار وخراب هائلين)... ذاك بيتي». رد الرجل بإعتزاز ثم تابع كلامه:

– «علـيّ أن أذهـب لإحضـار بعض الأدوية من بيتـي ... لن يطول غيابي ... سيساعدني أحد الشباب في نقلكما إلى مستشفى صور».

– «ولكن القصف عنيف هنا ... لا يجب أن تتجول الآن ... سأحتمل الألم» قال بلال بصوت شديد الوهن.

لكـن الرجل القروي لم يسمع ما قاله بلال، بل مضى في سباق مع المـوت ذي الإتجاهـات الأربعة .. كان الدوي يطـارده والمسافة بين الموت والموت أمتار. كروم الزيتون هزأت من الطائرات التي طاردت حتى الدواب.

وصل الرجل القـروي الحارة المدمرة وتسلق تلة الركام ليصل إلى بيت لم يبق منه سوى جدار واحد. بدأ برفع الحجارة عن المكان حيث حفظ الأدوية ولوازم الإسعاف. إزدادت عروق اليدين وإختنق فيها الدم وما تحقق المراد إلا بعد أن وقّعت الحجارة توقيعها الدموي على يديه.

أخـذ ما يلزم وما بقي صالحاً للمداواة وهمّ بالنزول من فوق كومة ردم فرأى طائره الكناري لا يزال حياً في قفصه ملقى قرب الجدار، إلتقط القفص وفتح بابه للطائر قائلا:

- «هيـا يـا رفيقي إنطلـق ... أنـت تستحق الحرية عـن جدارة... آنسنـي تغريدك فلم أسمع صوت الحرب» لكن الطائر لم يشأ مغادرة القفص رغم الباب المفتوح.

- «مـاذا أفعـل الآن؟... لا تكـن عنيداً... هيا إنطلـق... إبتعد عن الموت» حـدّث الرجل القروي طائره محـاولا مساعدته على الخروج مـن القفص. أخرجه عنوة، ووضعه على كفه مذكراً إياه بالجناحين، لم يبتعد الطائر كثيراً حتى رآه صاحبه عائداً إلى الردم.

غادر الرجل القروي المكان متمتماً:

- «سنلتقي قريباً».

وصـل الرجل القـروي المكان حيـث كان بلال وأبو حيـدر ما زالا على حالهما. وصل على وداع قذيفة وإستقبال أخرى. أشجار الزيتون تعـرف عائلاتها جيداً. دقائق قليلة مضت ثم وصل المسعف وحيّاهم قائلاً:

- «السـلام عليكـم... أنا سأحمـل أبا حيدر وأنت يـا حاج يوسف عليـك بمساعدة بـلال» وحمل أبا حيـدر على ظهره بينمـا إستنهض الحاج يوسف بلالاً قائلاً:

- «هيا إتكىء عليّ ... أحضرت معي بعض الأدوية المخففة للآلام ... خذ هذه الحبة ».

دبكة تحت الزيتونة

– «علينـا الوصول إلى سيارة الإسعـاف التي تنتظرنا على الطريق هناك» قال المسعف.

أوصـل الحاج أبو يوسف «بلال» إلى داخـل السيارة وأعطاه الدواء مرفقاً بالتعليمات ثم ودع المسعف والسائق قائلا:

– «عليّ أن أعود... قد يحتاجني الشباب هناك .. بأمان الله» .

مـا إن إنطلقـت سيارة الإسعـاف بسرعتها القصـوى على طريق متعرجـة بيـن البساتيـن والكـروم حتـى استهدفتها طائـرة حربية إسرائيليـة وأطلقت باتجاهها قذيفة أجبـرت سائقها على الإنحراف بإتجاه مزرعـة للبقر داخل أحد البساتين وهنـاك غابت عن الرؤية. وجـد السائـق نفسه أمام عدد من البقر وكميـة هائلة من التبن. بقي السائق داخل السيارة أما المسعف فنزل منها قائلاً:

– «التبن قد يحمينا من الشظايا».

بـدأ بتجميع التبن فـي محيط السيـارة بينما إنصـرف السائق إلـى إجـراء إتصالاتـه الهاتفية لتأميـن الطريق. مضـت ساعة ثم خفّـت حدة الغارات فانطلقت السيارة بأقصى سرعتها متوجهة نحو مستشفـى صـور.

لم يتألم بلال لفقدان إحدى ساقيه بقدر ما تألم لخروجه من ميدان الحرب باكراً. باكراً! قبل أن يقفل شهر تموز أيامه خاطب سماحة السيد حسن نصـر الله المقاومين معلناً بداية هزيمة الجيش الإسرائيلي. أبو حيـدر في غرفـة العناية الفائقة لـم يسمع كلمات سماحـة السيد عن بشائر النصر. رافق الخطاب الأطباء والعاملين إلى غرفة العمليات وإلى كل الأمكنـة داخل المستشفى. بقي الخطاب دائـم الفعالية. إستقبلت

المستشفى ضحايا مجزرة قانا فردّ الجيش الإسرائيلي بالمزيد من القصف على المستشفى.. خطاب سماحة السيد كان يتنقل بين أسرّة المصابين مواسياً، وكان يشاركهم الألم.

بقي الأطباء ومساعدوهم مع أبي حيدر وغيره ممن شغلوا غرف العناية الفائقة في الطابق العلوي بينما أُنزل المصابون إلى الطابق السفلي. قل الدواء والماء ومستلزمات العمل الطبي لكن مهمة المستشفى إستمرت.

ما توقف هو قدرة المعتدي الإسرائيلي على متابعة الحرب.

هو يوم الإثنين في الرابع عشر من شهر آب حين إحتشد المواطنون الجنوبيون باكراً جداً عند معبري بنت جبيل وبيت ياحون. أول الواصلين كان عكاز بلال وساقه المبتورة ، وشظايا القنابل في جسد أبي حيدر. على جانبي الطريق الرئيسية لمدينة بنت جبيل، تجمعت العيون وتهيأت لرؤية رتل الدبابات الإسرائيلية المجرورة بجرف الإنسحاب وعلى طريق المدينة المدمرة عينها التي أعادتهم إلى كيانهم بالهزيمة المعولمة.

لم تبد آلات التصوير العابرة للقارات أي قدرة على تركيب صور الإنسحاب بألوان زاهية، فقط الأصفر هو ما قدم التفسير. بين عكاز بلال ودبابة « الميركافا» المعطوبة فقط عدة أمتار، ولا شيء بينهما إلا قرار الإلتزام بوقف العمليات. بين الثواني لمح المنسحبون ذاك السؤال في العيون التي لم تشارك بعد في الدفاع عن الأرض: «لمَ علينا الإكتفاء بأن نكون شاهدين؟ ماذا لو....؟» أرادت الدبابات أن تسرع فما أسعفتها الطريق التي أمعنت فيها تدميراً وقصفاً. باتت

دبكة تحت الزيتونة

عيون المواطنين الشاهدين على الإنسحاب جبهة حرب مفتوحة لا فاعلية فيها لقرار مجلس الأمن الدولي «١٧٠١».

العيون الجنوبية هيأت كل ذخائرها .. ولم يجد سائق الدبابة المنسحبة وسيلةً لوقف تدفق تلك الذخيرة من جانبي طريق الإنسحاب سوى القفز من الدبابة إلى الطريق صائحاً وبصوت فاقد الهوية:

– «إبتعدوا».

ستون ثانية فقط هي التي استطاعها سائق الدبابة البقاء خارج الرتل، ثم عاد واندس إلى داخل الخواء المعدني مستمداً منه بعض المناعة.

هناك العيون الصغيرة، الشاهد الأصدق على مجازر قانا والدوير ومروحين وعيترون وبنت جبيل وجبشيت والبازورية والمنصوري ، قد نصبت صواريخها وأسقطت كل الإستراتيجيات العسكرية تحت كروم الزيتون . هناك وقف من بقي من عائلة قضت سحقاً تحت الركام، مستفزاً ذاكرة المهزوم الذي عاد إلى كيانه أشلاءً مطارَداً بأشلاء ضحاياه. هنا، تماماً قرب الإعلام المعولم والمدجن، إنتصبت بقايا مواطنين وقد رأوا أيديهم وأرجلهم وتشوهاتهم، تلحق بالدبابات المنسحبة إلى مخادعها... ولتؤسس مواطنية الكوابيس، وبالقرب من بلال وأبي حيدر إتكأت سنوات ثمانون على عصى وعلى تجاعيد لم تخش الإعلان عن زهوٍ أثار حسد الملايين:

– «هذا هو الدرس.. وللمرة الثانية» الثمانون قالت وعلى الباقين حسن الإصغاء.

لكن ما لم يظهر أمام الرتل المنسحب والذي كان الأكثر وطأةً هو ذاك الحصار من العيون المتربعة على تلة سمخيا. عرف الرتل

من الدبابـات أن تلك العيون كانت ترصدهـم، وتتحسّر على الصيد الضائـع... علـى العدالة المفقـودة ...عيون بالـكاد غادرها الخجل الطفولـي لكنها حملـت «الوعد الصـادق» مسؤوليةً. ربمـا وقع الرتل أسير ذاكرته للغد وما امتلك التكنولوجيا لردعها...

فـي تلـك اللحظـات أجـادت الدبابـات المنسحبـة توثيـق نهاية الحرب... ليس من خلال المنظار المغلق، بل من خلال كروم الزيتون التي كانت « تطلق زيتونها رصاصاً» كما برر المعتدي هزيمته.

أظهـرت العين إكتفاءً، فـأدار أبو حيدر محرك دراجته وعلى أحد مقبضيهـا تدلى كيس بلاستيكي إحتوى بعض الفاكهة. سأل أبو حيدر بلالاً:

- «أعائد أنت إلى العديسة ... تعال أوصلك معي».

ركب بلال وعكازه خلف أبي حيدر... وإنطلقت الدراجة.

- «هنـاك الكثيـر من الأعمـال المتراكمة فـي كـروم الزيتون... القطاف وعصر الزيتون» بادر أبو حيدر الكلام بصوت رجل عادي... عادي جداً.

- «وأنـا أيضـا علي أن أستعـد للسنة الدراسيـة الجامعية الثانية» أجاب بلال بصوت شاب عادي... عادي جداً.

علـى طريق العديسـة، إستوقف مصور وصحافـي أبا حيدر وبلالاً وهمـا علـى الدراجة وسألاهما عـن أحدهم في العديسـة. فأشار أبو حيدر إلى المكان المقصود وتابع كلٌّ طريقه.

دبكة تحت الزيتونة